العدد (2143) السنة الثامنة - السبت (28) أيار 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

# رشـــاقـــة الـــصـــورة

نزار عبد الستار

حصانة الإنسان تكمن في أن يمتلك مفهوماً عاماً وطبيعياً عن درجة قسوة الحياة. على هذا القالب نشأت الصلابة القلبية وتفشّت الصراعات.

منذ أول كتاب لجيوفاني بوكاشيو والعالم يحتفي بالذين يمتلكون تصوراً مكسوراً عن العالم. إن عظمة الأدب تتلخص في الشجاعة التي تنتاب البعض لاكتشاف دلالات جديدة لحبة العنب. حتى الذين لا يعرفون أي شيء عن مكابدات العقول الشكاكة يتوقون لتبديل أكثر القناعات رسوخا، والتضحية بكل المعتقدات الواقعية في سبيل الخيال الأنيق.

حروب الكلام لا تقل أصالة عن التناسل، فما أن ننطق بشيء جديد حتى نجد ملايين الأفواه تهاجمنا بالكلام القديم. إن وصف العالم أهم مهمة يمكن أن يقوم بها الروائي ذلك لأنه سيكون قد نقل آلاف الصور عبر الكلمات وكلما كانت الدهشة كبيرة أصبحت الغبطة متحققة.

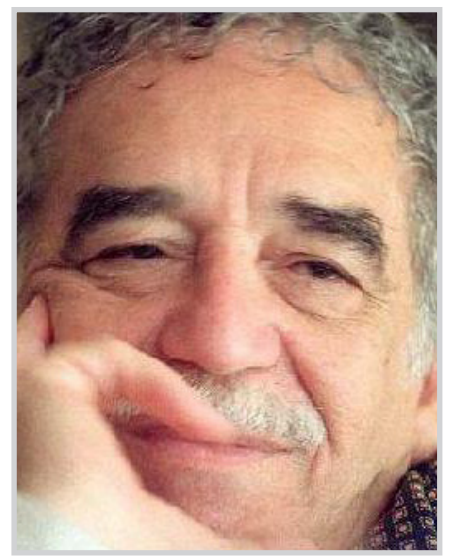

ماركيز

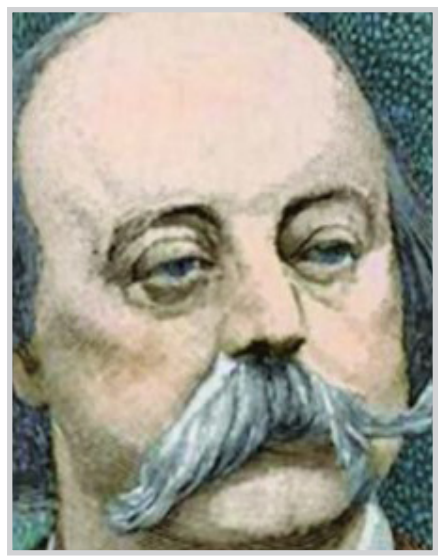

فلوبير

لقد حقق فلوبير إنجازاً باهراً حين استعمل الوصف البانورامي في تشكيل الصورة، فقد أدرك هول الضياع الذي يصيب الروائي وهو أمام حيرة الانتقاء. لقد سد فلوبير فراغات الفضاء وطور أسلوب التطابق مع الواقع، وهو الأمر الذي اوجد فرصة لازدهار سريع للفن الروائي. إن نقل روحية الحياة إلى الكلمات صنعة في غاية الدقة وهي تتطلب من الروائي ان يكون عالما بكيفية التدخل. فلو ان فلوبير وصف عنزة تلوك ورقة توت باطمئنان روحي فان العنزة بالنهاية لابد من أن ترتكب حماقة ما. لقد عطّل فلوبير الفضول الكريه الذي كان يدغدغ العباقرة في الماضي والتزم بالصورة وليس بالتأويل، فهو لن يتهم العنزة بالشراهة والاعتداء على الجمال النباتي، وإنما سيجعلها تلتهم بغباء قطعة قماش.

مصائر الأبطال تغيرت تماما مع مطلع القرن العشرين ولم يعد بالإمكان تصديق كل شيء. لقد كافحت الرواية طويلاً من أجل التحليل، وهذا الأمر كان يواكب تطور العالم. في العقود القديمة كان التقليد يحكم كل شيء والعراقة هي سمة حياة، حتى الفقر كانت له تقاليده المؤبدة، ولكن مع جنون العالم خرج الروائيون بصورة ديناميكية عن الوجود. لقد تطلب الأمر محو الذات الواعظة واستبدالها بالذات الخالقة.

كثيرون من عظماء العالم أدركوا مبكراً شراسة المنافسة حتى قبل ان تتطور الحركة وتصبح ذات قوة جبارة. لقد بات من الواضح ان اختلافاً قد طرأ على معاناة الإنسان، وقد ساهمت الحروب في إلقاء البشرية كلها في معصرة واحدة الأمر الذي حفز الأفكار وجعل المعاناة تقترن بالتغيير.

المدارس الفنية التي خرجت من دخان المدافع اهتمت بالصورة المملة والبشعة. لقد أوجدت الرواية الجديدة في فرنسا صوراً باردة عن الحقيقة المرة، وآمنت مكرهة بالمأساة البشرية الكبرى، لكن ذلك لم يدم طويلا، فعلى الجانب الآخر من العالم كانت بغال أمريكا اللاتينية تعبر الحدود البرية، وتركب السفن حاملة صورة جديدة عن الإنسان في بقعة تراب نائية تتفاعل بالطبيعة.

إن أهم ما تعلّمه العالم من أخطائه هو ان أي دمار يصيبنا سيعيدنا بشكل آخر إلى حالة من الثقة بروعة الوجود. هذه التناسخية الروحية ظهرت أولاً في الأدب حين تم التسامح مع كل الثقافات. بهذه البساطة ولد غابرييل غارسيا ماركيز وجماعته من لقطاء الدكتاتوريات اللاتينية. لقد بات بالإمكان رؤية مناطق أبعد من مركز العالم ورؤية ما في عمق الصورة.

الرواية الناجحة هي التي تقرأ العالم بشكل مختلف. الإعلانات الآن تبلغنا بشيء مشابه، فقد تبيعنا شركة ما صابونة فواحة وتقول عنها إن فيها ثلاثة أقداح من الحليب. إنّ الحليب في الحقيقة لم تعد له أوعية ثابتة وتقليدية، والأبقار كذلك صارت تتمتع بصحة فائقة العناية أسوة برؤساء الدول. بهذه التقنية جددت الرواية الحب وعمّقت فينا مفاهيم مبتكرة عن روعة السفر في القطار.

لقد كافح فلوبير طويلاً من اجل ان يرى بشكل أفضل وحاول الكثيرون بعده تحسين مجال الرؤية لكن ليس باتجاه الوضوح والتطابق مع الواقع وإنما من اجل تجديد الدلالة، لهذا باتت الحياة في الرواية مختلفة عما نعرف. ان تطور الرواية ارتبط دائما بالصورة الشعبية عن الحياة وما حالة التطرف التي أصابت الرواية في تقلبات ما بعد الحرب العالمية الثانية إلا محاولة لتطويع الخيال والتمهيد لبهجة جديدة.

نحن الآن نعيش بطريقة مختلفة، ولابد من أن تسرع الرواية وتصل قبلنا إلى المحطة القادمة. هكذا هو العلم وهكذا هو الأدب أيضا: سبق للحياة.

الروائيون العظماء هم الذين يفرحونا بصورة رشيقة عن العالم وهم الذين يقولون لنا أين تكمن يرقات الجمال. إن الحكمة مندمجة الآن بالمتعة حيث للأشياء أكثر من معنى والانتصار في العشق له أكثر من وجه.

# جائزة غوته لأدونيس

## مثقفون: لدوره الريادي في الشعر العربي اثر فاعل على أجيال لاحقة من الشعراء

المدى الثقافي

أعلن معهد غوتة أول أمس عن فوز الشاعر ادونيس بجائزة غوته المرموقة للآداب ، حيث أعلنت لجنة التحكيم انه (اهم شاعر عربي في عصرنا) ، ورأت اللجنة في حيثيات منحها الجائزة ان أدونيس ( نجح في نقل منجزات الحداثة الأوروبية الى الثقافة العربية. وأكدت اللجنة ان الجائزة تمنح لادونيس لموهبته الشعرية الفائقة وتوجهه الكوزموبوليتي ومساهمته في الأدب العالمي).

وسيتسلم أدونيس المرشح منذ سنوات طويلة لنيل جائزة نوبل الجائزة التي تمنح كل ثلاث سنوات، وقيمتها المالية ٥٠ ألف يورو، في حفل يقام بفرانكفورت مسقط رأس الأديب يوهان فولفغانغ فون غوته في ٢٨آب المقبل.

وقالت الحكومة الألمانية في بيان "اعتبرت لجنة الاختيار أدونيس الشاعر العربي الأكثر أهمية في جيله، ومنحته الجائزة عن عالمية أعماله وإسهاماته في الأدب العالمي".

والجائزة باسم غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) وهو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، وترك إرثاً أدبيا وثقافياً ضخماً، وتنوع أدبه ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر، كما اهتم بالثقافة والأدب الشرقيّين.

وتضاف هذه الجائزة الى عديد الجوائز التي حصل عليها الشاعر خلال أكثر من خمسة عقود من مسيرته الإبداعية. وقد سبق ان فاز بهذه الجائزة الشاعر فؤاد رفقه.

(شاعر كبير ويستحق هذه الجائزة) يقول الشاعر حسب الشيخ جعفر مضيفا: كان لدوره الريادي في الشعر العربي اثر فاعل على أجيال لاحقة من الشعراء..فضلا عن دوره التحديثي ليس في الشعر حسب ، بل من خلال خطابه النظري والمعرفي .

فيما يرى الشاعر نصير فليح إن أدونيس علامة بارزة في الأدب والشعر العربي الحديث، وهو مرشح منذ عدة أعوام لنيل جائزة نوبل، كما ان مساهمته في نقل منجزات الحداثة الأوربية إلى الثقافة العربية –كما تشير لجنة منح الجائزة– هي مساهمة مميزة وجلية، ولكن عندي تساؤل فقط حول اعتبار أدونيس أهم الشعراء العرب، بالطبع حكم كهذا لا بد أن يكون مستندا إلى أوليات ومنطلقات كافية، ولعل التفاصيل اللاحقة التي سوف تنشر عن الجائزة وحيثياتها ستوضح مسوغات إطلاق تقييم كهذا.

اما الناقد فاضل ثامر فيرى فوز الشاعر ادونيس بهذه الجائزة استحقاقا ثقافيا جديرا به فهو واحد من ابرز شعراء العربية الحداثويين، وكذلك منه منظري الشعر والفكر في العالم .. وأضاف انه في الوقت الذي نهنئ فيه الشاعر على هذا الفوز .. فإننا نأمل ان يكون هذا مقدمة لفوزه بجائزة نوبل للآداب باعتباره مرشحا لها منذ زمن.

## ضمن فعاليات مهرجان السليمانية ..

# "نظرية الكوانتم" و "ريتشارد الثالث" في محاضرة صلاح القصب

السليمانية/ المدى

ضمن فعاليات مهرجان السليمانية للمسرح الكردي قدم المخرج المسرحي الفنان د. صلاح القصب محاضرة بعنوان (نظرية الكوانتم وقوانينها الفيزيائية بتكنلوجيا المسرح ) قدمهُ الناقد بشار عليوي ، حيث تحدث عن أهمية إشتغالات د. القصب الذي كان ومنذ تجاربه المسرحية الاولى في مطلع الثمانينيات ما مازال يثير جدلاً فكرياً ومعرفياً واسعاً بين اوساط المختصين والمثقفين وجمهرة المشاهدين لعروضه المسرحية ، والقصب يستحق كل ذلك هذا الجدل لأنه رجل مهووس بالمسرح وقد إختار اكثر الطرق وعورة لانجاز مشروعه المسرحي، وهو طريق وعر لانه طريق مثّل قطيعة حقيقية مع المنجز المسرحي العراقي باعتماده في عروضه على تقنيات لا مألوفة وغرائبية في انتاج العرض . ثم بدأ د. القصب محاضرته الى نظرية الكوانتم التي تركز على تفسير حزمات الضوء والتي تنتشر في فضاءات العرض من خلال الكلمات وتحديد العلاقة مابين الرؤيا وفيزيائيتها البصرية وبين الطاقة وكميات التردد الصوري في الكم الصوري لدى المتلقي . فالتكنلوجيا في المسرح هي النواة في جسيمات التفاعلات القوية مابين عناصر العرض وتقسم ضمن فلسفة الكوانتم الى اتحاد فيزيائي للعناصر ومعادلاتها والذي تشتغل قواه في تكنلوجيا الرؤيا وقراراتها وتسمى بالقيمة البلانكية وهي عناصر شاملة لقوانين الذرة والنواة وفيزياء الجزيئات . تكنلوجيا المسرح هي اشتغالات الحقل العلمي ومغادرة مناطق المنطق القديم من خلال الموجة والطاقة والجزئيات ومسارات الضوء لمكون اتصالي غامض من خلال الفيزياء والميتافيزياء وتوليف طاقة متداخلة في فضاءات العرض والذي تشكله موجات اوسيل من ذبذبات موجبة.

فالعرض المسرحي وتكنلوجيته الكمية كل لايتجزا إذ أن كل جزء فيها مترابط .

تكنلوجيا المسرح ترتيب لمعادلات هرمية لافكار ورؤى وطروحات مستقبلية تبحث هناك لاهنا وهي اشبه بماسحات الرنين النووي المغناطيسي القادرة على تتبع دورة ذرات معينة في اشتغالات تقنيات الرياضيات والاحصاء من اجل تحليل المعطيات وعلوم الكومبيوتر تدخلت في مناح عديدة لطرح انفتاحات لمعرفة جديدة بالكلية تنمو وتتطور لنتائج مهمة . تلا ذلك فتح باب الحوار ، حيث شارك كُلاً من ( د. قطب الدين صادقي / سيروان بيلانه / د. قاسم بياتلي / أرسلان درويش / عبد الله كاكه ئي ) .

# محمد خضير يحتفي بـ"عدن الخاوية" رواية "فاروق السامر"

جاسم العايف
البصرة

**خص اتحاد أدباء البصرة رواية القاص والروائي فاروق السامر "عدن الخاوية" الصادرة عن / دار الينابيع /دمشق / بجلسة السبت الثقافية . أدار الجلسة القاص "محمد خضير" الذي قدم مداخلة عن الرواية وعوالمها ونسيجها السردي وثيمتها. وقد بدأ بالحديث عن "السامر" موضحا انه من المنقبين دون كلل في الوعي والضمير العراقي والإنساني، واستخدم مبضع الجراح وفرشاة الرسام وقلم الكاتب اليقظ في هذه الرواية .**

وأضاف الأستاذ "خضير" هذه الرواية رواية حرب، و حرب ضارية عذبت الكائن الإنساني وآذته وتركت خدوشاً لا تُمحى على حياته ومستقبله، والسامر كشف فيها عن موهبة وقدرة على رسم شخصيات الرواية، والتي تنوء بعذاب ومحن الحروب. ولاحظ القاص "محمد خضير" إن الشخصيات النسائية في الرواية مُعرفة بالأسماء وإنها ضحية الحرب، والشخصيات الرجالية مبهمة الأسماء مع إنهم عادةً مَنْ يُشعل الحروب، ولعل السامر في ذلك أراد أن يكشف بالأسماء أوضاع الضحايا من النساء وعذابهن ، وقد عمد السامر لمحو أسماء الرجال مع قوة سلطتهم الذكورية القاسية تجاه النساء . والرواية تؤكد رمزية أشياء المدينة التي أكلت الحرب من حياتها وحياة سكانها ، وذهب السامر في "عدن الخاوية" لرسم ملامح المدينة وخصوصيتها وتفردها دون بقية المدن العراقية ،والمدينة لم تسمَ باسمها المعروف ، وقد وضع القاص السامر اسما رمزيا لها هو "عدن" والحق به "الخاوية" ،مع انه نقل جغرافية المدينة بوضوح من خلال أسماء الشوارع والمحلات المعلومة للقارئ، و أسبغ على شخصيات الرواية كثيرا من الأوصاف الحية . والرواية تحفل وتضج بالأصوات العالية كأزيز الطلقات ودويّ المدافع والراجمات ، ومقابل رسائل الفناء هذه، ثمة أصوات مهموسة في النسيج السردي للرواية، منها أصوات الطيور وحفيف الأشجار، وغنج وغزل وجمال النساء وإسرارهن وخصوصياتهن. كما عمد السامر على إسباغ الجمادات صفات الأحياء ،من خلال منحها لوناً وصوتاً ، والحوادث تجري في الرواية في جو صامت ساكن اصفر ومُغبَر، وحوادثها تقع في يوم واحد ، وزمنها الروائي محدد بالساعة السادسة عصراً. وأضاف القاص "خضير": الفصل الافتتاحي في الرواية يبدأ بلوحة "مذبحة ساقز" للفنان ديلاكروا" وهذا الفصل مهم كونه تمهيدا للرواية ، والهدف منه تنشيط فعالية إيقاع التلقي لدى القارئ لتقبل الرواية، ولعل البعض يعتقد انه منفصل عن الرواية، لكنه فصل لابد منه كمفتتح لسبر أغوار "عدن الخاوية"، والغرض منه ضبط إيقاع السرد الروائي. والرواية بكليتها تتنفس من الفصل الأول ، مع إن كل فصل يعيش متنفساً لوحده ، وفي الفصل الأخير تبدأ الفصول بالتنفس بوحدة سردية فنية جامعة. وأشار القاص "خضير" إلى أن عنوان الرواية يحيل ،لأول وهلة ، إلى مجموعة القاص فهد الأسدي "عدن مضاع" ولعله ارتباط قدري بين الرواية والمجموعة . وأضاف نلاحظ في " عدن خاوية" افتقاد المدينة إلى المستقبل ،مع إنها مدينة الأحلام والآمال والثراء المادي والروحي، لكنها مضيعة قهراً . ورواية "السامر" رواية حرب لكنها تفترق عن كل ما كتب عراقيا عن تلك الحرب ، لأنها تتميز بجرأة خاصة بـ"السامر" وحده. ثم قدم الناقد "بنيان صالح" ورقة بعنوان "عدن الخاوية- القيام من الجحيم" وقد قسمها إلى أقسام عدة هي/حطام..حطام /سيدات فاعلات/ إرادة الموت أم إرادة الحياة/ زحل الحلم/ وكتابة عراقية. وذكر الناقد بنيان إن الرواية تتحدث عن الدمار الذي تسببه الحروب من خلال توصيف الإحداث والأجواء، وفيها سيدات منتهكات وخمسة رجال لاعبون ، وميزتها إنها تقرأ الحس العراقي المُخرب بفعل الحروب المتعاقبة. وقدم الناقد عزيز الساعدي ورقة بعنوان "عدن الخاوية.. رواية مكان وتاريخ مدينة" ذكر فيها نزوع السرد نحو القسوة وإحساس الروح بالاغتراب، بفعل مخلفات ووقائع الحروب وانعكاسها على القيم والتسلكات ، والرواية مملوءة بالصور البانورامية ، وفيها يصبح الواقع خيالاً والخيال واقعاً. وقدم الشاعر عبد السادة البصري ورقة بعنوان " عدن الخاوية.. روايتنا جميعا" أكد فيها أن السامر تلمس أعماقنا عبر ذاكرته اليقظة تجاه نار حرب السنوات الثمان، والتي عصفت بالعراق والبصرة بالذات التي رمزها "عدن" الأحلام لكنها "الخاوية" في الواقع المنظور. وتخلل الجلسة تعقيبات ساهم فيها الأستاذ محمود عبد الوهاب الذي أشار إلى أن رواية "عدن الخاوية" تمثل مغايرة متقدمة في البناء الفني للقاص والروائي فاروق السامر. وأضاف إن ما قُدم من أوراق حولها كُرس حول المضمون و شارحة للإحداث من دون أن تتناول تقنية الرواية، فالمضمون وحده ليس كافياً لدراسة الرواية على أهميته، ما لم تكن التقنية هي المنظمة للشكل، باعتبار المضمون وحده تجربة الكاتب ولكن المضمون والشكل في تداخلهما يعنيان التقنية فناً ، ومن هنا يصح أن تُقيّم الرواية في نمطها بناء فنياً. وساهم في المداخلات الشاعر كاظم الحجاج والناقد خالد خضير الصالحي والكاتب عدنان علي شجر والشاعر احمد جاسم محمد والشاعر جمال الهاشمي والفنان كفاح الأمين.

وتحدث القاص " السامر" موجهاً الشكر للجميع ثم خص بعض زملائه من الأدباء الذين اطلعوا على الرواية مخطوطة، وأبدوا ملاحظاتهم حولها، موضحاً انه اخذ ببعضها. وقال السامر انه سعى في روايته اعتماد" الواقعية التركيبية" ملتقطاً الإحداث والأشياء في زمن الحرب بطريقة قاسية، كالحرب ذاتها ، وانه رغب بهذه الطريقة في السرد إثارة مخيلة القارئ ، وانه نظم المادة الخام في روايته معتمدا على الحوار المسرحي واللقطات السينمائية وتتابعها، واعتماد الألوان التشكيلية سرديا ، وان فضاء الرواية ، الحرب والغدر والخيانة والتعذيب والعذابات، والألم والقهر والاندحار و الموت غيلة . وأجاب على تساؤلات بعض الحاضرين والتي تخص "عدن الخاوية" واستخدامه ما سماه بـ" الواقعية التركيبية". وساهم الأستاذ محمد خضير في التعقيب على مصطلح" الواقعية التركيبية" متسائلا كيف يمكن أن نجترح نقدياً مفهوماً مكوناً من جزأين هما "الواقعية" و"التركيب"؟. و أجاب السامر انه اجترح " المصطلح" خلال كتابته روايته هذه، ولا يلزم أحدا به. وسبق للقاص فاروق السمر أن حاز على الجائزة العالمية لمجلة "اليوم السابع" وجائزة الملتقى الثقافي العراقي، وله ثلاث روايات معدة للطبع إضافة لمجموعة قصصية قصيرة، وأصدر" المرايا الدامية" سيناريو فيلم سينمائي و"خمار دزديمونه" – مجموعة قصص قصيرة. وولد في البصرة عام ١٩٤٧.

تلويحة المدى

# صراع الديكة الثقافي!

■ شاكر لعيبي

في جميع المراحل الثقافية العربية شهدنا صراعات ثقافية وسجالات موضوعية أو ساخنة. نتذكر أكيداً صراعات العقاد وطه حسين والشيخ عبد الرازق مع شريحة من الثقافة المصرية، ثم السجالات اللاحقة في مجلتي (الآداب) و(الأديب) عن الشعر الحر بين مؤيد ومعارضٍ، وبعدها السجالات بشأن أدونيس الذي لا يردّ علناً، تعالياً، من بين آخرين. كتبتُ مرة أن غياب السجال العميق في الثقافة العربية في العشرين سنة الأخيرة غير مُستحسَن، وأضيف الآن أن سجالاً أفقه التجريح والتكذيب والنيل من الخصم بأي ثمنٍ غير مستحسَن بدوره.

أجبرَ البعض، إذا لم نقل جُل المثقفين العربً المعروفين على خوضٍ سجال ما، يرتفع أحياناً إلى مستوى الصراع الفعلي، أحياناً أخرى إلى صراع الديكة. من أجل معرفة الطبيعة الموضوعية للخلاف المرتفع إلى مستوى صراع غير مرغوب بهِ ينبغي في ظني طرح السؤال بالمقلوب: متى لا تخوض صراعاً في الثقافة العربية؟. في عدة حالات: عندما تكون في الظل ببرود قاتل، عندما تكون في برجك العاجي بسعادة بعض مفكري القرن الثامن عشر والتاسع عشر، عندما تعاود قول القوالب الثقافية السائدة، عندما تكون دون صديق ولا خصم حميمين. في هذا كله يقع الجانب المعقول المفهوم من المسألة.

لكن هناك جانب غير معقول ولا أخلاقي من المشكلة، ذلك أنك مدفوع دفعاً إلى خوض "مواجهة" ثقافية عندما لا يخشى أحد "سطوتك". يمكننا استخدام الفعل "يهاجم" لأنه مناسب في هذا المقام، إذ أن من يهاجمك ثقافياً دون رحمة ولا أيطيقيا متأكد من أن لا تأثير لك على الصعيد البرغماتيكي العملي، ولأنك في الحقيقة لا تملك "الحماية" و"الحماة" اللتين تبدوان ضروريتين في الظروف الاجتماعية والثقافية العربية، وهنا يصير الفعل الثقافي جزءاً تأسيسياً من الفعل السوسيولوجي الصافي. الحماة القدامى للفرد الشاعر الكلاسيكي، القبيلة، يتقنعون اليوم بقناع المؤسسة الثقافية ذات الثقل والتأثير، الحزب القوي، الأتباع والمريدين، وغير ذلك. أنت تُهاجم بضراوة إذنْ عندما لا تمسك بين يديك بـ "سلطة" ثقافية رمزية أو حقيقية، كأن لا تكون مسؤولاً عن صفحة ثقافية أو لا تمتلك داراً للنشر. رأسمالك الرمزي شاعراً ومثقفاً لا يكفي في الثقافة العربية لاجتناب الخصومات الحادة.

في الحالات الأخيرة ترى أن المحرّك الأصلي لخصمك هو العقل الثأري، عقل القبيلة ولكن بشكلها المحدّث شكلانياً. وترى أن الخصم ينهج لسبب ما أسلوباً بائداً أكثر من منهج الكلام الرفيع. في حالة افتقاد السلطان الثقافي توقّعْ ما لا يخطر على بالك لأدنى الخلافات والتقديرات ووجهات النظر. السلطة الممنوحة للعاملين في الحقل الثقافي تصير رديفاً للسلطة السياسية القامعة بالتمام. آليات كلتيهما تشتغل بطريقة متماثلة. فلو نفاك الحاكم من نَعَمه بسبب خلاف سياسي، سينفيك الخصم الثقافي من الحَقَل المخصوص الذي يتحكم فيه. لا فرق إطلاقاً. الفويرق الوحيد يقع في النعومة الحريرية الظاهرية للمثقف الخصم التي تخفي شراً مستطيراً. المشكلة الكبيرة هنا هي أن الخصم الثقافي لا يريد حتى ردا منك. يريدك ميتاً بالأحرى. ولكي لا نتخذ أحداً آخر مثالاً سنذكر، مستميحين القراء عذراً، أمثلة خبرناها عن كثب: لا يجهل الكثيرون دفاعي عن تهمة "الأيديولوجيا"، المغرضة التي اتهم بها جيلي وحدة الردود الساخطة عليها، ثم كتابتي عن استبعاد شطر من جيلي نفسه من أنطولوجيتين شعريتين صدرتا بالفرنسية والألمانية والردود الماحقة عليها، ثم الهجوم الكاسح على ترجماتي في جريدة وموقع إلكتروني معروفين في لندن. يكفي أن تقرأ نبرة الاحتقار والتعالي في كليهما لتدرك عمق ما نقول عن السلطة في الثقافة وليس سلطة الثقافة نفسها. أحياناً لا مفرّ من دخول سجال ثقافي عندما يقع تشويهٍ كتاباتك وقطعها من سياقها عسفاً، كما فعلتْ مقالة نشرت حديثاً عن "السوريالي الأول". أنت هنا مجبرٌ على خوض ما لا يُستحَبّ عادة. قريباً سيصدر عملنا "أنطولوجيا الشعر النسوي الأيروتيكي الشفاهي في العالم العربي"، وسترى أننا سنُتهم بكل بساطة بأننا لا نعرف أن ننقل العاميات العربية إلى لغتنا الفصحى. زعم أحد القراء المتخفين المعلقين في الموقع الإلكتروني المذكور أنني "سرقتُ" دراسة-ترجمة عن الشعر الأيروتيكي الفرعوني نشرتها في أوائل أعداد جريدة الغاوون – وهي بالمناسبة مقتطعة من كتاب الشعر النسوي الأيروتيكي الشفاهي – من مصادر أجنبية، محرّضاً عليّ علناً في مرةٍ لاحقة الصحيفة التي أكتب بها عمودي الأسبوعي، المدى، مضيفاً بحنق: لصاحبها فخري كريم، أو زاجًا باسمي في سجال لا ناقة لي فيه ولا جمل في مرة ثالثة. في الحالة الأخيرة هنا غيظ لا مبرر له من نشاطك الإبداعي. يمكن أن يقدّم الكثير من زملائي في الكتابة أمثلة مشابهة عن أنفسهم دون شك. في ثقافات العالم جميعاً يزوّد السجال المعرفة بعناصر جديدة، يصحّح الهفوات، ويكشف الأخطاء التي لا ينجو منها أحد، ويستبعد المضخّمَ، ويقرّب المهمّشَ، ويضع الأمور في نصابها، ويبدو في الغالب الأعم مهتماً بالمعرفة ذاتها وليس بذات الشخص المنقود. وإذا ما اهتم بهذا المؤلف أو ذاك شخصياً فلسبب معرفي أيضاً وليس لسبب آخر. لا نعدم بالطبع في تلك الثقافات جماعات عدمية وفوضوية تحوّل السجال إلى صراع للديكة.

إنها الأقلية اللازمة أيضاً للثقافة بصفتها تنويعاً على الفسيفساء العام، بل لعلها مزاجٌ لزاد ثقافي تتذوّقه أقليات ذات حضور مشروع. هل أن ثقافتنا هي ثقافة الأقلية العدمية بالمطلق، وهل أن سجالنا الثقافي لا أفق له سوى صراع الديكة غير المرغوب به، المنطلق على هواه باسم حرية إبداء الرأي ومزاعم التنوّع التي تخفي الواحدية؟.